دولة ليبيا
وزارة التعليم
مركز المناهج التعليمية والبحوث التربوية

اللغة العربية

للسّنة الثالثة
بمرحلة التّعليم الثّانوي (القسم العلمي)

الاسبوع الحادي والعشرون

المدرسة الليبية بفرنسا ـ تور

5- في الغزل للشّريف الرَّضيّ (ياليلة السَّفْع)

359- 406 هـ

صاحب النّصّ:

الشّريف الرَّضيّ: هو محمد الحسن الطاهر الموسَوِي ولد سنة (359هـ - 970م) ببغداد، وكان أبوه من سادة العلويين، ومن كبار الكتّاب. اختصّ الرضي بدراسة العربية، على ابن جني، وأبي سعيد السيرافي، وألف كتابين في تفسير القرآن، ولكن ذكرهما تأخر عن شهرته في الشّعر. جعله بهاء الدولة نقيبا للأشراف العلويين خلفا لأبيه سنة (373هـ - 1006م) ثم خلع عليه لقب الرّضيّ في العام الذي تلاه، وخلع عليه لقب الشّريف فيما بعد، توفي الشّريف الرّضيّ يوم 6 من شهر المحرم (406هـ).

مناسبة النّصّ:

يعبر الشّريف الرّضيّ في هذه القصيدة الوجدانية عن ماضٍ بعيد كان قد أسعده برهة من الزّمن الذي لم ينس فيه من أحبها، ولم يطق حبًا آخر بعدها، ولهذا أورد هذه الذكريات في هذا النّصّ الشّعريّ الرائع.

النّصّ:

يا ليلةَ السَّفْعِ ألا عُدْتِ ثانيةً	سَقَى زمانَكِ هَطَّالٌ من الدِّيمِ[1]
ماضٍ من العيشِ لو يُفدى بذلتُ له	كرائمَ المالِ مِنْ خيلٍ ومِنْ نَعَمِ[2]
لم أقْضِ منك لُبَانَاتٍ ظَفرتُ بها	فَهَلْ لي اليوم إلا زفرةُ النَّدمِ[3]
فليتَ عهدُكِ إذ لم يَبْقَ لي أبداً	لم يبقَ عندي عَقَابِلاً من السَّقَمِ[4]
تعجَّبوا من تَمَنِّي القلبِ مؤلمه	وما دَرَوْا أنّه خَلْوَاً من الألمِ[5]
رَدَّوا على ليالي التي سَلفتْ	لم أَنسهن ولا بالعهدِ من قِدَمِ[6]
أقولُ للائِمِ الْمِهدي ملَامتُهُ	ذُقِ الهوى وإنْ استَطَعْتَ الملامَ لَمِ
وظَبيةٌ من ظِبَاءِ الأنسِ عاطلة	تستوقُفُ العَيْنَ بين الخَمْص والهَضَمِ
لَوْ أنها بفناءِ البيتِ سَانحةٌ	لصدتها وابتدعتُ الصَّيدَ في الحَرَمِ[7]

جميع الحقوق محفوظة لـ مركز المناهج التعليمية والبحوث التربوية ـ ليبيا

قـدرتُ منهـا بـلا رُقبـى ولا حـذرٍ ... علـى الـذي نـام عـن ليلـي ولـم أَنَـم[8]

بتنـا ضَجِيعين فِي ثوبيْ هَـوَى وتُقىً ... يَلُفُّنـا الشّـوقُ مـن فـرعٍ إلـى قَـدَمِ[9]

وأمسـتِ الريُـح كالغيـرى تُجاذبُنَـا ... على الكثيبِ فُضُـولُ الرَّيـطِ واللَّمَـمِ[10]

يشـي بنـا الطِّيْـبُ أحيانـًا وآونـة ... يضيئنـا البـرقُ مجتـازاً علـى أَضَـمِ[11]

وبـات بـارقُ ذاك الثّغـر يوضـح لـي ... مواقـعَ اللَّثْـمِ في داجٍ مـن الظُّلَـمِ[12]

وَبَيْنَنَـا عفـةٌ بايعتُهـا بيـدي ... علـى الوفـاءِ بهـا والرَّعْـيُ للذِّمَـمِ[13]

يُولِـعُ الطَّـلُ بُرْدَيْنَـا وقـد نَسَـمَتْ ... رويحـةُ الفجرِ بيـن الضَّـالِ والسَّـلَمِ[14]

وأكتـمُ الصّبـحَ عنهـا وهـي غافلـةٌ ... حتَّـى تكلَّـمَ عصفـورٌ علـى عَلَـمِ[15]

فقمـتُ أَنْفُـضُ بـرْدا مـا تَعَلقَّـهُ ... غيـرُ العفـافِ وراءَ الغيـبِ والْكَـرَمِ[16]

وألمستنِي وقَـد جَـدَّ الـوَداعُ بنـا ... كفًـا تُشِـيرُ بقضبـانٍ مـن العَنَـمِ[17]

ثـم انثنينـا وقـد رَأَبَـتْ ظواهِرُنَـا ... وفي بواطننـا بُعْـد مِـنَ التُّهَـمِ[18]

يـا حبّـذا لَمَّـةٌ بالرَّمـلِ ثانيـةٌ ... ووقفـةٌ ببيـوتِ الحَـيِّ مـن أَمَـمِ[19]

دَيْـنٌ عليـك فـإن تُقْضِيـه أحـي بـه ... وإنْ أبيـتِ تقاضَيْنَـا إلـى حَكَـمِ[20]

عجبـتُ مـن باخـلٍ عنـي بريقتـه ... وقـد بذلـتُ لـه دونَ الأنـامِ دَمِـي

مـا سَـاعفتني اللّيالـي بعـد بينهـمُ ... إلّا بكيـتُ ليالينـا بـذي سَـلَمِ[21]

ولا اسـتجَّد فـؤادي في الزَّمـانِ هـوى ... إلّا ذكـرتُ هَـوَى أيامِنـا القُـدَمِ[22]

لا تَطْلُبَـنَّ لـي الإبـدالَ بعدهُـمُ ... فـإنَّ قلبـي لا يَرْضـى بغيرهِـمِ[23]

جميع الحقوق محفوظة لـ مركز المناهج التعليمية والبحوث التربوية ـ ليبيا

المعجم اللّغوي:

1. أَلَا: حرف تحضيض - السَّفع: اسم مكان - هطال: غزير المطر .
2. الديم: جمع «ديمة»، وهي السحابة الممطرة.
3. كرائم المال: أفضله - النعم: الإبل والشاة - اللَّبانات: جمع «اللبانة» وهي الحاجة والوطر - ظفر به: حظى به وحصل عليه.
4. العقابيل: جمع «العقبل»، وهو الأثر الباقي من الجروح.
5. خَلَوّ من الألم: يقصد: خلو من الحب المؤلم.
6. سلف: مضى وسبق.
7. الفناء: ساحة البيت - البيت: الكعبة - سنح: مَرَّ عن يمينك.
8. الرقبى: الرقابة .
9. الفرع: الشَّعر.
10. الكثيب: المرتفع من الرَّمل - الرَّيْط: الثوب - اللَّمم: جمع «اللّمة» وهي الشَّعر.
11. يشي: ينمُّ - أضم: الوادي الذي فيه المدينة المنورة.
12. الثّغر: الفم، والمعنى: كأن ثغرك يضيء فينقطع الظلام.
13. بايع باليد: عاهد - رعى الذِّمة: حفظ العهد .
14. يُولع: يُلون بالبياض - الضَّال والسَّلم: نوعان من الشجر .
15. العَلَم: الجبل.
16. ما تعلَّق الثوبُ غير العفاف: كناية عن طهارته.
17. العَنم: نبت له ثمر أحمر صغير، تشبه به الأنامل لطراوتها.
18. ظواهرنا، المعنى: مضى كلٌّ منا في سبيله، يَضُنُّ من يرانا الظنون، ولكن صميمنا نقي طاهر.
19. اللَّمة: الاجتماع، أو النزول في المكان - أَمَم: قرب.
20. قضي الدّينَ: وفّاه.
21. ذو سَلم: اسم مكان.
22. الهوى: ما يذكّر بالحب.
23. الإبدال، المعنى: لن أبدل الحبيبة بغيرها، فقد اختارها القلب دون العالمين.

جميع الحقوق محفوظة لـ مركز المناهج التعليمية والبحوث التربوية - ليبيا

المعنى الإجمالي:

يذكر ليلة قضاها في السَّفع ويتمنى أن تعود ويستسقي لها المطر لشدة السعادة التي كان قد نعم بها في ظلها، ويود أن يستعيد حلاوة ذلك الزمان ولو اقتضاه ذلك ماله وخيله وإبله، ويتندم؛ لأنّه لم يدرك غايته من تلك الليلة، ولم يقض حاجة نفسه، يتمنى لو أن ذلك العهد لم يخلّف به علة.

يقول: إن الناس يعجبون من رغبتي في أنْ أعود إلى عهد الحب والعذاب، ويجيب بأنه لم يتألم من أوجاع الهوى بل يستعذبها، يسأل أنْ يعيدوا إليه لياليه الماضية الماثلة لعينيه وعهده القديم الذي لم ينسه، ويقول لمن يلومه في الحبّ: إنك تلوم على مالم تخبره، فإذا خبرته امتنعت عن الملامة منه.

يشبه حبيبته بظبية أنيسة تخلب الناظر بخصرها اللطيف الناعم يقول: لو سنحت لي في جوار البيت الحرام لصدتُها، وأجزتُ صيد الحسان في الحرم نفسه، أدركتُها إحدى الليالي الملاح دون أن يحول بيننا رقيب، بتنا ضجيعين يلفنا الحب والعفاف ويشتمل علينا الشوق من الرأس إلى القدم، أمست الريح غيرى تجاذبنا على تلّة الرّمل أطراف شعرنا وثيابنا، لم يكنٍ أحد يدري بمقامنا لولا الطيب الذي يتضوع منا، والبرق الذي يلمع فوقنا مجتازاً إلى أضم، لم أكن أرى في ظلمة الليل موضع القبل منها لولا تألق ثغرها، لم يجر بيننا أي منكر، وإنما بقينا وفيين للعهد العفيف الذي قطعناه على أنفسنا.

كان المطر الخفيف القادم مع نسمات الفجر اللينة يصبغ بردينا بلون أبيض لمّاع.

كتمتُ عن الحبيبة حلول تباشير الصَّباح مخافة أن تبارحني، وهي لذهولها لم تفطن إليها إلاَّ بعد أن أيقظها من غفلتها زقزقة عصفور فوق الجبل، فقمتُ عفيف الثوب أنفض عنه ما علق به من رمال دون أن يعلق به ما يشين، وعندما حان الفراق صافحتني بكفها المخضبة الأنامل، ثم ابتعدنا، وفي ظاهر أمرنا أننا أتينا أمرًا مريباً، بينما كنا في الواقع بعيدين عن كل تهمة أو شائنة، من لي بلقاء آخر على تلك الرمال وبوقفة ثانية ببيوت الحي.

لي عليك ديْن فإن تقضيه عشت به وإلاَّ رفعت شكواي إلى قاضي الغرام، عجبت كيف تبخلين عليَّ برضاب ثغرك، وأنا الذي بذلت لك في الحب دم الفؤاد.

إني لا أزال منذ ليلتنا بذي سَلَم أبكي الزمان الهنيء الذي مضى، كلما حركني هوى جديد ذكرت أيامنا السالفة، ولكن قلبي مقسم على العهد، لا يرضى عنك بديلا.

جميع الحقوق محفوظة لـ مركز المناهج التعليمية والبحوث التربوية ـ ليبيا

الخصائص الفنيّة:

مناسبة هذه الميمية حالة وجدانية عصفت بالشّاعر جعلته يتحسر على نعيم مضى، كان اللقاء والعفاف صنوين فيه، فيتشوق إلى أوقات العذاب معلنا وفاءه له، ويعمل على تجسيد حالته بكل ما أوتي من فنٍّ وبراعة.

وأنها مأساة المحبين، يبلى بها معظم العشاق في كلّ زمان ومكان، والشرف في هذا التسلسل الفكري، والعاطفي، مشاعر البيئة العباسية المتحضرة، بما فيها من إخضاع الانفعال الشعوري لعمل العقل، دون أن يجر ذلك إلى الجفاف وقسوة المنطق، وهذه البيئة التي لم تنعتق تمام الانعتاق من قديمها، ومع هذا فقد عرفت كيف ترهف النغم في البيت وتسوقه إلى القافية وكيف تبدع في اختيار اللفظة الموقعة وتقيم من القصيدة فنًّا متكامل البناء.

لا شك أنَّ الرقي الحضاري مهد لصاحب النّصّ السبيل إلى الإحساس بالنغم فأجراه في أبياته، وهيأ له الشعور بجمال التركيب، فأضفى إلى تأثره بالتصوير الجاهلي حلة جديدة من عمل عصره.

وفي القصيدة جو بدوي، حجازي المحيا، ولهجة جاهلية وفقتها الروح العباسية، وفيها شيء من عذوبة الغزليين الكبار الذين وقفوا حياتهم على الحب والوفاء والاستسلام.

وعلى الرغم من حرص الشّريف الرّضيّ على اختيار الألفاظ ووضعها في موضعها وتوليد الصور، فإنه أخفق في تحقيق ذلك في معظم أبيات القصيدة، فَعُرِضَت ألفاظ ثقيلة على السمع، إمّا لحروفها المتنافرة وإمَّا لسوء موقعها مع غيرها، من مثل قوله: (ذق الهوى) فذق كأنها مقطوعة عن غيرها، وقوله: (فضول الريط) ولو قال: الثوب لكانت ألطف (وباخل عني بريقه) ولولا الوزن لقال (البخيل) ولحذف (عني).

هذا إلى الكثير مما لا موقع له لولا الوزن والقافية من ذلك: (من خيل ومن نعم) فهي تفصيل حفز عليه اكتمال البيت، ولو حُذف لكان أوقع؟ لأن كرائم المال تغني، ولا تجر الحب إلى مستوى المبادلة بالخيل والجمال، ومثله الشطر الثاني من البيت السادس (سلفت) تغني عنه (والرعي للذّمم) زيادة غير مستحبة، كذلك (تكلم العصفور على العلم) وكان من الخير أن يتكلم على غصن شجرة، وثمة ألفاظ وصيغ استعارها من السابقين (لبانات ظفرت بها)، (سقى زمانك هطال من الديم)، (ظبية من ظباء الأنس)، (نام عن ليلي ولم أنم) ولكنه وفق في ألفاظ وتعابير جديدة، ومن

جميع الحقوق محفوظة لـ مركز المناهج التعليمية والبحوث التربوية ـ ليبيا

أجملها: (تستوقف العين، يلفنا الشوق من فرع إلى قدم، الريح كالغيرى) ولو حذف الكاف كان التشبيه أجمل (أكتم الصبح، ابتدعت الصيد في الحرم).

والشّاعر من عصر اشتهر بالصياغة البيانية البديعة، وله في ذلك جولات، ولكنه يخفق هنا في إبداعها إلاَّ ما ندر، ولعل جوّ الصحراء أضفى على أسلوبه طابع الصياغة القديمة، مع أنّه في الحجازيات نفسها يتكلف الصور البديعية كثيراً.

وفي النّصّ استعارات وتشبيهات وطباق وكناية، ولكن الجديد فيها قليل، فمن القديم استعار (خطاب ليلة السفع) وكناية (سقى زمانك هطال من الديم) واستعارة (إبقاء العقابيل للعهد)، وهي بشعة والتمني للقلب، (وذوق الهوى) وتشبيهه المرأة بالظبية، واستعارة البرق للثغر، والطباق بين ظواهر وبواطن، والبرد والحرّ.

ومن الجديد القليل استعارات: (تستوقف العين، ابتدعت الصيد، ثوبي هوى، يلفنا الشوق، أكتم الصبح، وتشبيه: الريح كالغيرى)، وقد أحدث اضطرار الشّاعر إلى ألفاظ وتراكيب لاكتمال الوزن والقافية تفككاً في بناء البيت، فلا هو كيان مستقل، ولا هو جزء من بنيان شامل، بل أجزاء لا يربط بينها إلاَّ التكلف واكتمال الوزن.

لذلك وردت قواف عدة مقسورة قسراً، رغم أنَّ القافية في الشعر دعامة بناء البيت، من ذلك: (من خيل ومن نعم، عقابيل من السقم، ولا بالعهد من قدم، مجتازاً على أضم، داج من الظلم، بين الضّال والسلم، تكلم عصفور على علم) فكل القوافي هنا لو حذفت لما أثرت في معنى الأبيات أو بنائها، وحذفها خير من ذكرها، فقد أرغمت الشّاعر على التعابير التي ذكرنا بعضها، فإذا هي فضول كلام، لا معنى له.

ومعنى ذلك أنَّ الشّاعر لم يحسن الإيجاز والاختصار في معظم أبيات القصيدة، بل أطنب فيما لا داعي له، فإذا التعبير مخل في قاعدة من أشهر قواعد التعبير في العربية، والتعبير واضح بسيط، ولكن ما جدوى هاتين الصفتين مادامت المعاني مبتذلة أو مأخوذة عن الأقدمين، والتعبير ضعيفاً والقصيدة تقليداً في أساسها.

والصور الجيدة قليلة جدا مما أشرنا إليه في موضوعه، ومعنى ذلك أن جهد الخيال كان جزئياً، والحق أنَّ الأسلوب أقرب إلى أساليب القدماء منه إلى ما عرف في عصر الشّريف الرّضيّ.

وتباينَ أثر الوقع الموسيقي، فهو أحياناً مزعج وأحياناً مألوف تبعا لتكلّف الصياغة أو سلامتها، على أنَّ القارئ يشعر أنَّه يسمع نغماً قديماً يرجع إلى صدر الإسلام ولا ينتسب إلى عصر الشّريف الرّضي.

جميع الحقوق محفوظة لـ مركز المناهج التعليمية والبحوث التربوية ـ ليبيا

3. في وصف قصور الحمراء (لابن زَمْرَك)

733- 796 هـ

صاحب النّصّ:

هو محمد بن يوسف بن أحمد الصُّريْحي، ويُعرف بابن زَمْرَك بفتح الزَّاي والرّاء، أصله من شرقي الأندلس، هاجرت أسرته إلى غرناطة، وسكنت بحي البيازين، وبها ولد سنة 733هـ. دفع به والده إلى المدارس للتعلم منذ سنٍّ مبكرة، وكان من التلاميذ النجباء بمدرسة غرناطة التي أنشأها أبوالحجاج يوسف الأول، ولقي ابن زَمْرَك اهتمامًا خاصًا من لسان الدين بن الخطيب الذي كان قريبًا من القصر في عهد ملوك بني الأحمر، وفي المؤسسة العلميَّة درَّس كبار الأساتذة في علوم القراءات، والفلسفة، وقد اتصل ابن زمرك بهؤلاء الأساتذة جميعًا ونهل من معارفهم، وبعد رحلة طويلة مع العلم وممارسة حرفة الكتابة في دولة بني نصر، وصنعة الشعر، وخاصة شعر المديح، ووصف قصور الحمراء وما تحويه من نزه ونقوش وزخارف، قُتِل في صحن داره عام 796هـ من قِبَلِ حسَّاده والمنافقين.

مناسبة النص:

تنافس حكام الأندلس منذ عهود مبكرة في بناء المدن، والقصور، والمساجد، وخلَّد لنا الشعر والتاريخ أسماء العديد من هذه العمائر في كافة ربوع الأندلس، في قرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، والعديد من هذه المباني لا تزال شامخة بزخارفها، وروعة هندستها بالرغم من تقادم السِّنين، وعوامل الإفساد والتخريب، وتشويه معالمها من قبل النَّصارى، نجد ذلك في الجامع الكبير بمدينة قرطبة، والمئذنة العالية المعروفة ب: «الخيرالدا» بمدينة إشبيلية، وقصر الحمراء في مدينة غرناطة، وهو عنوان هذا النَّصّ الذي نظمه ابن زَمْرَك، وعُثر على عدد من أبياته منقوشة على جدران القصر، وأصبح القصيد بعد ذلك جزءًا من زخارفه، ونظرًا إلى أهميته من الناحيتين الفنية والتاريخيَّة ترجم إلى اللغة الإسبانية.

لقد وصف لنا ابن زَمْرَك القصر وصفًا دقيقًا، ففيه يحدثنا الشاعر عن المنتزهات، والأطيار المغرِّدات، والأشجار المائسات، وبهو الملوك، والقناديل والشموع، والرخام المجلوِّ، ونكاد عندما نقرأ النصَّ نستمع إلى ألحان العازفين، ونشاهد رقص القيان.

جميع الحقوق محفوظة لـ مركز المناهج التعليمية والبحوث التربوية ـ ليبيا

النّصّ:

ولله مَبْنَاك الجَميلُ فإنَّهُ	يَفُوقُ عَلَى حُكْمِ السُّعُودِ المبَانيَا
فَكَمْ فيه للأَبْصَارِ مِنْ مُتَنَزَّهٍ	تُجدُّ بهِ نَفْسُ الحليمِ الأمَانيَا
وَتهْوى النُّجُومُ الزُّهْرُ لو ثَبَتَتْ به	وَلَمْ تكُ في أفْقِ السَّماء جِوَارِيَا
به البَهْوُ قَدْ حَازَ البَهَاءَ وقد غَدا	بهِ القَصْرُ آفاقَ السَّمَاءِ مُباهيَا[1]
وكَمْ حُلَّةٍ جَلَّلَتْهُ بحُلِيِّها	مِنْ الوَشْيِ تُنْسِي السَّابِرِيَّ اليمانيَا[2]
وكَمْ من قِسِيٍّ في ذُرَاهُ تَرفَّعَتْ	عَلَى عَمَدٍ بالنُّورِ بَاتَتْ حَواليَا[3]
فَتَحْسَبُها الأفْلَاكَ دَارتْ قِسِيُّها	تُظِلُّ عَمُودَ الصُّبحِ إذ لاحَ باديَا
سَوارِي قَدْ جَاءَتْ بِكلِّ غريبَةٍ	فَطَارتْ بها الأمثَالُ تجري سواريَا[4]
به المَرْمَرُ المجلُوُّ قَدْ شفَّ نُورُهُ	فيجلُو مِنَ الظَّلْمَاءِ ما كان دَاجيَا
إذا ما أضَاءتْ بالشُّعَاعِ تَخَالُها	على عِظَمِ الأجْرَامِ منْها لآلِيَا
وراقصةٍ في البهو طَوْعَ عِنَانِها	تُراجِعُ ألحانَ القِيانِ الغوانيَا[5]
إذا مَا عَلتْ في الجوّ ثُمَّ تحدَّرتْ	تُحَلِّي بِمُرْفَضِّ الجُمانِ النَّواصِيَا[6]
سقَتْ ثَغْرَ زهْرِ الرَّوضِ عذبَ بَرُودِهَا	وقامت لكي تهدي إلى الزَّهرِ ساقيا
كأنْ قد رأتْ نهرَ المَجَرَّةِ ناضِبًا	فَرَامَتْ بأن تُجْرِي إليه السَّوَاقِيَا
وقامت بناتُ الدَّوْحِ فيه مَوَائلَا	فُرَادى، وَيَتْلُو بعضُهنَّ مثانيَا[7]
تُغَرِّدُ في أفنانها الطَّيرُ كلَّما	تَجُسُّ بها أيدي القِيانِ المَلَاهِيَا[8]
تُراجعُها سَجْعًا فَتَحْسِبُ أنَّها	بأصواتِهَا تُمْلِي عليها الأغانيَا
فلَمْ ندرِ رَوْضًا منه أنْعَمَ نَضْرَةً	وأعْطَرَ أرجاءً وأحْلَى مَجَانيَا
وَلم نرَ قصرًا مِنهُ أعلى مَظَاهِرًا	وأرْفَعَ آفاقًا وأفسحَ نَادِيَا

جميع الحقوق محفوظة لـ مركز المناهج التعليمية والبحوث التربوية ـ ليبيا

المعجم اللّغوي:

1. البهو: المكان الواسع المخصَّص لاستقبال الضيوف.
2. السّابِرِيَّ اليمانِيّ: من الثياب، الرَّقيق الجيِّد، تنسب إلى اليمن.
3. قِسِيّ: مفردها «قوس» وهو قطعة من الدائرة.
4. سواري: مفردها «سارية» وهي الأسطوانة في الهندسة.
5. القِيان: ومفردها «قينة»، وهي المغنية.
6. مرفضِّ الجُمان: المتفرق من اللؤلؤ.
7. بناتُ الدَّوح: كناية عن الحمامة تعلو الشجرة.
8. تَمِيس: تتبختر.

المعنى الإجمالي:

حاول ابن زمرك جاهدًا أنْ يضع في هذه القطعة من إحدى قصائده صورة دقيقة لقصر من قصور الحمراء التي لا تزال ماثلة حتى عصرنا، ناطقة بما بلغته الحضارة العربية والفنّ العربيّ الإسلاميّ في الأندلس من روعة بالغة، ولم يقف عند الكلام العامّ الّذي لا يدل على شيء واضح، بل دقق في وصفه حتى أرانا القصر بما فيه من بهو وعُمد، وما اتخذ فيه من رفيع المرمر ومن بحيرة متلألئة تتوسطها نافورة، قد نصبت على أركانها تماثيل الأشجار وصور الأطيار وزاهي الأنوار، أضف إلى ذلك مفارشه وما حليت به من الدّيباج، وستوره وما زينت به من الوشي، فكلّ ذلك يصوره ابن زمرك ويجسمه حتى لنكاد نشاهده تحت أعيننا بل لنكاد نلمسه بأيدينا.

هذا القصر الذي وصفه ابن زمرك من أهم قصور الحمراء بغرناطة تلك القصور التي بدأ تشييدها «أبو الحجاج يوسف إسماعيل» سلطان غرناطة المتوفَّى سنة (755هـ - 1354م) وأتمها أبناؤه من بعده وكان من أكثرهم عناية بالتأنق فيها وإحكام مبانيها «محمد الخامس» الملقب بالغني بالله المتوفّى سنة (793هـ - 1390م) وهو الذي أقام ذلك القصر الباهر الذي أبدع ابن زمرك في وصفه، وقد نجا هذا القصر من التخريب الذي أصاب أكثر القصور الأندلسية بعد خروج العرب من الأندلس سنة (897هـ - 1492م).

جميع الحقوق محفوظة لـ مركز المناهج التعليمية والبحوث التربوية ـ ليبيا

الخصائص الفنيَّة:

عن جمال هذه القصور وما فيها من روعة البنيان، وجمال النقوش ذات الطابع العربي الإسلامي؛ تَحَدَّث المستشرقون الإسبان وغيرهم، وأَلَّفُوا العديد من الكتب في هذا الشأن، ونشروا أبحاثًا في أشهر المجلات الأوربية، وهذا أحد المستشرقين يصف قصيدة ابن زمرك، فقال: «تتألف من أربعة وعشرين بيتًا منقوشة على امتداد الحائط مبتدئة من يمين الباب الذي يصل بين القاعة وبهو الأسود لمن يدخل القاعة في هذا البهو»، وعندما نشرع في قراءة القصيدة نجد الشاعر قد استهلها بوصف القصر متعجِّبًا من جماله، وأنه يفوق كُلَّ المباني، وهذا مؤكد لأنه باق إلى اليوم، يزوره ملايين السُّيَّاح من شتّى بقاع العالم، وتجني من ورائه الدولة الإسبانية الأموال الطائلة.

يصف الشاعر ما في القصر من نُزَهٍ، والثريات التي ثُبِّتَتْ بأركانه، والبهو الفسيح الذي خُصِّص لاستقبال الوافدين من ملوك وأمراء، ولم ينس الشاعر وصف السّتائر التي تكسو جنبات القصر، وكلها حيكت من أجود الأقمشة، كما التفت إلى القباب والأعمدة المصنوعة من المرمر المجلوّ الذي يبدِّد الظلماء عندما تنعكس عليه أنوار المصابيح، ثم يصف بركة الماء التي تعكس الأنوار التي تطوف بكل جدران القصر.

يبدو من خلال هذا الوصف الدقيق أنَّ ابن زمرك له علاقة وثيقة بما يصف حيث إنَّه تحدَّث بكل دقة عن جميع مشمولات القصر، وهذا لا يتأتى إلاَّ لمن كان حاضرًا دومًا بين جنبات وأبهاء الموصوف، وما نؤكده أنَّ الشاعر لم يرسم شيئًا من صنع الخيال، بل نجد لوحة واقعية رآها الشاعر بعينيه، وسِرُّ إبداعه يكمن في مقدرته على جمع هذه المحاسن في لوحة تكاد تنطق ألفاظها، وهذا الوصف البديع يجعل القارئ قادرًا على استحضار صورة هذا القصر دون أن يراه، وأمَّا فيما يتعلق بالتصوير البلاغي ففي النّص العديد من الاستعارات التي تزيِّن الأسلوب، ومن ذلك قوله: (مبناك يفوق المبانيا، وتهوى النّجوم، والبهو حاز، والسواري جاءت بكلِّ غريبة، والمرمر شفّ نوره، وقامت بناتُ الدَّوح) وجمال التشبيه نستحضره من خلال قوله: (نهر المجرَّة ناضبًا) حيث شبه السَّماء بالنهر الذي جفَّ ماؤه، والزّخارف اللفظية لها حضور في هذا النّصّ؛ لأنها تنسجم مع الموضوع، نجد الجناس في قوله: (كم حُلَّة جَلَّلَتْهُ بحُلِيِّها، وسواري قد جاءت تجري سواريا) والطباق في قوله: (شفّ نوره في الظلماء، وإذا ما علت في الجوِّ ثم تحدَّرت).

جميع الحقوق محفوظة لـ مركز المناهج التعليمية والبحوث التربوية ـ ليبيا